كما أنني عاجز، بالفعل، عن التوفيق بين آراء وليد الليبرالية، التي لا تريد قسر التطوّر الإجتماعي، وبين التزامه بالكفاح المسلّح. هل يعتقد الكاتب أن الثورة في العالم الثالث سوف تؤدي إلى قيام مجتمع ليبرالي، تقف على قمته طبقة من المقاولين وأولاد العائلات الأرستقراطية من نمط عامر عبد الحميد، وليد مسعود، إبراهيم الحاج نوفل، طارق، وصال، مريم الخ... وهم عالم وليد مسعود الحقيقي؟

إن الثورة والكفاح المسلّح، في هذه الرواية، هما مجرد تسلية عابرة لطبقة من المقاولين والأثرياء. إنهما يصبحان جزءاً من الحياة الإجتماعية المريحة التي يغرق فيها وليد.

البطولة، بدون عقبات، هي أحد الملامح الأساسية لهذه الرواية.

وبالقدر نفسه من غياب الموضوعية، ومن افتقاد المعرفة بالأوّليات يتعامل وليد مع الفكر السياسي والإقتصادي والإجتماعي.

ها هي أفكار وليد الحضارية:

ـ «كان يريد لهذا المجتمع (المجتمع العراقي ـ ربما العربي أيضاً) أن يحقّق ذاته عن طريق العقل، والحرية والإبداع...».

ـ إن التصنيع قد فرض على المجتمعات الأوروبية، بواسطة «أقليات عاتية لا تحيد عما صممت عليه، وتعتبر المشكلات كلها قابلة للحل بالوسائل التقنية والعقلانية، طلباً للتقدّم. غير أن هذه العقلانية المفروضة من فوق تقلقه...» لأنها سوف تتحوّل لتصبح «ذريعة لتمرير أهداف خاصة لفئات تعطي الخبز للفم بيد، وتسلّط المقرعة على العقل باليد الأخرى...».

وما هو الحل لهذا المأزق؟

«الحلول، في آخر المطاف، يجب أن تنبع من الداخل، من الإرادات التي تمثّل بمجموعها هوية الأمة، وإن العقل كما يراه هو، مزيج ذو ظلال لا تحصى يجب أن يتحرّك بملء الحرية، مدفوعاً بنزعة الإبداع الغامضة أبداً، الخطيرة أبداً، لكيما يستطيع أن يفعل فعله الحقيقي في المجتمع».

وبكلمات أوضح، إنه إذا كان لا بد من قيام عملية قسر اجتماعي وسياسي لتصنيع بلد متخلّف، فلنتوقف عن التصنيع، ولنمنح حرية واسعة، فإن «يد الله الخفية» التي يتحدّث عنها آدم سميث، أو «نزعة الإبداع الغامضة»، كما يسميها وليد مسعود، قادرة على حل جميع المسائل، بأسهل الطرق وأسلسها.

سوف نتحدّث، فيما بعد، عن الدلالات الايديولوجية لهذا الحل السهل الساذج لمسائل شديدة التعقيد. إن ما نوّد أن نؤكّده، هنا، هو أن طرح هذه المسألة يفتقد المعرفة بالأوّليات. هل يمكن قيام تصنيع دون قسر اجتماعي واقتصادي، وبالتالي سياسي؟ كيف يمكن أن يتم قيام تراكم رأسمالي، وهو ما تحتاجه الصناعة الثقيلة من خلال «نزعة الإبداع الغامضة»؟